

القصص

معناه ، أنواعه ، شروط جودته ، نماذج منه

للمؤلف محمد سعيد العربي

القصص في اللغة : تتبع الأثر ، وإعلام الخبر ، والرجوع على الطريق ،
وفي القرآن الكريم : « فارتدا على آثارهما قصصا » : أي رجعا من الطريق
الذي سلكاه .

وقص الحديث : روايته على وجهه .

والقصة : الأمر ، والحديث المكتوب .

ومن معاني القصص : البيان : قال تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص »
أي نبين لك أحسن البيان .

وفي اصطلاح أهل الأدب : هو ذكر قول أو فعل ، حدثاً أو أمكن حدوثهما ،
أو هو حكاية حادث متحقق أو متخيل لا يبعد كثيراً عن حدود الحقيقة
والإمكان العقلي .

فليس ثمة فرق كبير بين الوضع اللغوي ، واصطلاح أهل الأدب في
في تحديد معنى القصص ، فهو عند هؤلاء لا يعدو أن يكون من رواية الخبر ،
أو تتبع الأثر ، أو الرجوع على الطريق ، ولكنه في التحديد العرفي يزيد على
معناه اللغوي عنصراً جديداً : هو النسميح بحكاية حادثة متخيلة ، لا تبعد كثيراً
عن حدود الإمكان العقلي ، وبمقدار الفرق بين المعنى الوضعي لكلمة (القصص)
وبين معناها عند أهل البيان ، نجد الفرق نفسه بين القصة في العربية لأول
عدها ، وبينها في الأدب الحديث ، فما كان عند العرب ولا فيما أثر من آدابهم
قصص موضوع أو متخيل ، على الوجه الذي يعنيه أهل الفن بكلمة القصص .

على أن المحدثين من أدباء العرب كانوا يطلعون على هذا الضرب من فنون الأدب : اسم الرواية ، وإن تكن كلمة (الرواية) بمعناها اللغوي هي أعم مما تعنيه كلمة (القصص) في الأدب الجديد ، فكل حديث متناقل هو رواية عند أهل اللغة ، فنه رواية الشعر ، ورواية الحديث ، ورواية اللغة ، ورواية التاريخ وأخبار السلف ، ومن هذا المعنى الأخير جاء إطلاق كلمة (الرواية) على معنى (القصص) مع تخصيص من ناحية ، وتوسع من ناحية أخرى ، أما التخصيص ، فمن إطلاقها على هذا الضرب بخصوصه من دون أنواع الرواية ، وأما التعميم فمن التوسع في استعمال كلمة (الرواية) حتى تشمل كل متخيل ممكن ، وإن لم تكن له حقيقة في ماضى التاريخ ، بل إن هذا التوسع نفسه جديد في التعبير الأدبي ، نشأ منذ قريب ، حين اتجه بعض أدباء العربية في دراساتهم إلى الموازنة بين الأدب العربي ، وآداب اللغات الأخرى ، فوضعوا لهذا الفن أول ما وضعوا : اسم الرواية .

قلت : إن وضع كلمة (قصص) أو (رواية) على هذا الفن من فنون البيان ، كان يوحى به ماضى العربية ، والمأثور من آدابها ، فلم تكن القصة الموضوعية أو المتخيلة معروفة عند العرب ، ولا هي كانت فنا من فنون منشئهم وأدبائهم ، وإنما كانوا يروون من مثل قصة مجنون ليلي ، وعنترة ، والزباء ، وجذيمة بن الأبرش ، وسيف بن ذى يزن ، وغيرها ، على أنها حوادث من حوادث التاريخ ، وأخبار السلف ، وما أنكر أنها كانت في أولها كذلك ، أو شيئاً يشبه ذلك ، ثم تداو لها الرواة منهم بالزيادة ، والمبالغة ، والتحوير ، وزادوا فيها على الحقيقة ما زادوا ، حتى اقتربوا بها قدرأ ما - مما نسميه القصة في الأدب الحديث ، على أن روايتها لم يتناقلوها ليرووها من بعدهم من أهل الأدب ، وطلاب التاريخ ، إلا على أنها لون من حكاية ما كان ، فيقصها القاص منهم ، وهي عنده حقيقته من حقائق التاريخ ، توارثها جيل عن جيل بالرواية ، ومن ثمة جاء إطلاق اسم الرواية عليها ، غير ملحوظ فيه معنى من معانى الفن ، ولا منظور فيه إلى أن في إطلاقه توسعاً في المعنى اللغوي ، أو تحديداً لاصطلاح جديد في الأدب .

ما هو الأدب

وما أعنى بهذا الذى أزعم ، أن الخيال العربى ، أو العنقل العربى ، كان قاصراً عن استنباط القصة ، أو حبكة عقدها ، أو التفنن فى خلق حوادثها ، وتسلسل أنبائها ؛ فالحقيقة أن العرب فيما خلفوا لنا من تراثهم الأدبى ، قد برهنوا أن لهم خيالا بعيد الشأو ، وفطرة قصصية بارعة ، ولكنهم لم يستخدموا هذا الخيال ، ولم يثمروا تلك المواهب البارعة فى صناعة القصة ، فسبقهم غيرهم من أدباء الأمم الأخرى إلى إنشاء هذا الفن ، ثم زاد الخلف على ما أنشأ السلف ، وخلق وابتكر ونوع ، حتى صارت القصة عندهم إلى ما صارت إليه ، فناله ضوابط وحدود ، وقواعد مرسومة ... وظالت عندنا على ما تلهمه الفطرة ، وما توحى به الطبيعة ، وما يمل به الخيال ، بلا ضوابط ، ولا قواعد ، ولا حدود .

بلى ، إن فى الأدب العربى القديم لمآثورات بارعة ، يمكن أن تكون نوبات لقصص مطولة لو وجدت من يحكيها على أسلوب القصة ، ويلتزم ضوابطها الفنية . نوبات لو تذهبنا لها لوجدنا معينا لا ينضب ، كان حربا بأن يمدنا بالمدد بعد المدد ، لننشئ فى العربية فناً جديداً من غير أن نقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا فى التاريخ الأدبى ، وبمثل هذا تحيا الآداب العربية وتتجدد ، من غير أن نكون مضطرين إلى الاستعارة أو الاستجداء من أدب الغرب ، والجرى فى غبار كتابه وشعرائه :

بل إن العرب الأولين قد عرفوا الأسلوب الرمزي فى القصص قبل أن يعرفه أدباء أوربا ببضعة عشر قرناً ، من شام فليقرأ حديث الإسراء والمعراج ، أو قصة الفتية الثلاثة الذين خرجوا للحج فأظلم الليل ، فأووا إلى كهف يديون فيه حتى يتنفس الصبح ، فتدحرجت صخرة من أعلى الجبل ، فسدت عليهم باب الكهف ، فأخذوا يضرعون إلى الله بذكر ما قدم كل منهم من عمل صالح .. هذان الحديثان وأضرابهما كثير فى الأدب القديم ، هما نمط عال فى الأسلوب الرمزي لم يهتد إلى مثله أدباء أوربا إلا منذ قريب .

لو أنه كان من وكندى أن أتحدث عن القصص فى الأدب العربى لوجدت مجال القول ذا سعة ، ولكن ذلك شئ لست أرانى فى حاجة للحديث إليكم عنه ،

وكلكم أقدر عليه، إنما يعني أن أتحدث عن القصص باعتبارها فنا من فنون البلاغة، ولونا من ألوان الأدب، فساتحدث عنه من هذه الناحية وحسب، وبحسبي أن أقول لمن يذكر على العرب أن لهم قدرة على القصة، وخلق الرواية وإنشاء المحاور، بحسبي أن أقول له لا يصح زعمه؛ إن العرب قد عرفوا القصة ووجدوا القدرة عليها، وتهيأت لهم أسبابها، ولكنهم لم يعالجوها، ولم يعنوا بها، فظالت القصة عندهم خيالا وطبيعة وفطرة، ولا شيء غير ذلك، على حين كان القصص في آداب الأمم الأخرى صناعة وقواعد مرسومة، وذلك كل شيء. ومعذرة من هذا الاستطراد، ولنعد الى ما نحن بسبيله.

قلنا إن أدباء العربية إلى عهد قريب، كانوا يطلقون اسم الرواية على معنى القصص، ولكن بين القصة والرواية في اصطلاح أهل الفن لعصرنا هذا فرقا سييين فيما بعد، عند الحديث عن أنواع القصص.

بالتعريف الذي انتهينا إليه في تحديد معنى القصص، تنوارد على الذاكرة كل فنونه وأنواعه، من المثل، إلى الأقصوصة، إلى الحكاية، إلى القصة، إلى المقامة، إلى الرحلة، إلى الرواية.

ولكل نوع من هذه الأنواع، حد يعرف به ويتميز، وشروط يحد بها عند الأدباء، ويوزن بها عند النقاد.

وليس يعني في هذا الحديث أن أبين أي هذه الأنواع كان أسبق إلى الظهور من سائرهما، بمقدار ما يعني الحديث عن كل نوع، بما يرسم له صورة توضيحية تعين على تمييزه بما على عداه.

المثل :

للمثل في العربية معنيان : الأول هذه العبارات المتوارثة التي نستعيرها لتشبيه حال بحال من مثل قولنا : الصيغ ضيغت اللبن . وسبق السيف العذل . ولو ذات سوار لطمتني . ولنسم هذا النوع : المثل التعبيري ، وهذا لاسبيل لنا إليه ، فليس بينه وبين القصة صلة من قريب ولا من بعيد .

الثاني : هو رواية حادثة محتلفة لا حتمية لها في الظاهر ، تورد على السنة الحيوانات والجمادات وغيرها ، مضمنة حكمة أو مغزى ، من مثل ما روى ابن المقفع في كناية ودمعة . وهذا النوع هو الذي يدخل في بابنا ، وهو النوع الفطري الأول من أنواع القصة ولنسمة المثل الحكائي . ويأتي المثل الحكائي على أنواع :

يمكن الحدوث عملا ، ومستحيل ، ومختلط :

فالمثل الممكن هو مانسب فيه الحديث أو الحادثة إلى ذى عقل (مثال) والمستحيل هو ما جاء فيه الحديث على السنة العجاوات ، معزوا إليها النطق أو العمل ، للتعليم ، والإرشاد ، والموعظة ، أو للتهكم والسخرية (مثال) والمختلط ، ما جرت الحادثة أو الحديث فيه بين ذى عقل وأعجم (مثال) والفرق بين المثل الحكائي ، والمثل التعبيري ، أن الأول يدخل في نطاق عمل الأديب والمنشئ ، فكل كاتب أن يتكلم من الأمثال الحكائية ما يلائم موضوعه وغايته ، كما ينشئ رواية أو قصة ؛ ولكل مستشهد أن يستشهد به ، بلفظه أو معناه ، غير مقيد في روايته بنسق خاص ، أو بعبارة مأثورة .

أما المثل التعبيري ؛ فهو أثر أدبي متوارث ، بلفظه ، ومعناه ، ومضربه ، فلا يمكن التصرف فيه تصرفا لفظيا ولا معنويا ، يعبر عن المذكر والمؤنث ، والواحد والجماعة ، بلفظ واحد ، هو اللفظ الذي ضمنه كتابه ، أو جاء على لسان راويه .

والفرق بين المثل والحكاية : أن له مغزى حكيما سيق من أجله ، وأنه غير واقعي ، وإن كان بعض أنواعه قد يكون في حيز الممكنات العقلية . وإذا كان المثل الحكائي هو نموذجا أدبيا يسهل على كل أديب أن ينشئه أو يتصرف فيه ، كان حتما أن تكون لصناعته شروط تضمن جودته :

أ - أن يكون منسجما الأسلوب سهل الدلالة ، يؤدي المقصود منه إلى ذهن سامعه من غير أن يكدر ذهنه .

ب - أن يكون مع انسجام أسلوبه قسيرا موجزا ، لانه في موضعه من

الكلام - هو وسيلة لا غاية .

٣ - أن يبهج السامع بطلاوته ، ويفكه فكرته بهزل كلامه ، وابتكار معانيه ، ويضبط عقله في فهم الرواية المختلفة وفض مشكلها .

٤ - أن يورد بصورة محتملة ، وإن كان هو في ذاته مستحيل الحدوث ، ذلك أن المثل وإن كان مختلفا لاحقيقة له في الظاهر ، فلا بد له من بعض تشابه بالحقيقة ، ففي الضرب الذي ينسب فيه الحديث أو العمل إلى حيوان مثلا ، ينبغي أن نذكر ما يعرف الناس من صفات هذا الحيوان ، وعاداته وغرائزه ، ليكون حديثه أو فعله متطابقا مع ذلك ، وإذا نسب إلى جماد يجب أن نلاحظ عند اختراع المنزل ، الخواص الطبيعية لهذا الجماد ، فيكون حديثه أو فعله كأنه تعبير العناصر بلسان حالها ، أو السر المضمهر في خواص طبيعتها ، وهكذا .

٥ - ينبغي أن يكون للثل مغزى واضح يؤدي إلى المعنى الذي يعنيه منشئه من موعظة أو سخرية ، أو دعوة إلى شيء ...

وليس ضروريا أن يتأخر المغزى إلى خاتمة المثل ، وإن يكن ذلك شرطا رئيسا في سائر أنواع القصص ، فقد يسبق المثل مغزاه قبل حكايته ، ويكثر ذلك في أمثال كلية ودمنة :

... أضرب لك مثلا للطمع يؤدي بصاحبه إلى الهلاك ؟ وكيف كان ذلك ؟

قال زعموا ...

المقامة :

أما المقامة فهي لون آخر من ألوان القصص ، يعني فيه أول ما يعني ، بتجويد العبارة ، وأناقة الأسلوب ، وحشد الكلمات اللغوية ، والعبارات المأثورة ، حشدا يعين المتعلم على تحصيل اللغة ، ويظهر براعة المؤلف ، ومقدرته اللغوية . وأصل المقامة في اللغة : المجلس ، وهي في اصطلاح أهل هذا الفن : رواية لطيفة ، حسنة التأليف ، أنيقة التصنيف ، تتضمن نادرة أو نكتة أدبية ، وتتموم على عنصرين : الراوى ، وهو رجل كثير السمر والرحله ؛ وصاحب الخبر ، وهو رجل أديب فكه ، متشطر بارع التصريف في الأمور ، متمثل بين البلاد

في طاب الرزق ، يلتمس له وسائله ! متذكرا في كل زى ، فيتعالم ، ويتعارج ، ويتعالم ، ويتجاهل ، ويلبس لكل حال لبوسها ، وتقوم حوادث المقامة على لقاء الراوية وصاحب الخبر ، فيكون بينهما أمر من الأمر . فيرويه راويه ، منسوبا إلى صاحبه .

ففي مقامات الحريري : تقرأ في أول كل مقامة : حدثنا الحارث بن همام قال ... ثم ينسب ما ينسب من الوقائع إلى أديب مقاماته الذي يسميه أبازيد السروجي .

وفي مقامات بديع الزمان ، تقرأ المقامة من رواية رجل يسميه عيسى بن هشام ، يحكى عن أبي الفتح الإسكندري .

ومراتب المقامة أو أجزاءها الفنية ، هي أجزاء القصة نفسها ، كما ستحدث عنها بعد ، وهي العرض ، والتعقيد ، والحل ، ونزید عليها أنها تنحلي في خاتمتها بأبيات هزلية تنسب إلى صاحب الوقائع في المقامة ، الذي أسميته فيما سلف : صاحب الخبر .

وإذا كان المقصود في المقامة هو تجويد العبارة وعرض نماذج من الأساليب تدعى على التحصيل اللغوي ، كان أهم شروط جودتها ، هو العناية بالأسلوب في كافة مظاهره : من الكلمة ، إلى العبارة ، إلى المعنى ، بحيث يؤدي مؤداه على وجهه .

وتنسب المقامة في الغالب إلى مكانها ، أو إلى المروي عنه ، أو إلى بعض وقائعها ، فهناك « المقامة الحلبية » ، والمقامة الموصلية ، وهناك « مقامة القراد » ، أو « الصوفي » ، وهناك مقامة « الغازي » ، أو « الميت » ،

الرمز :

أما قصص الرحلات ، فهي أقرب أنواع القصص إلى الفطرة ، وتقوم على رواية ما يشاهده رائد من الرواد ، أو رحلة من الرحالين في سفر طويل ، وأوضح مثال لها في الأدب القديم ، رحلة ابن بطوطة ، وهو رجل خرج من

بلاده في المغرب ، ليؤدي فريضة الحج ، فما زال يحب ويضع ، وتتقاذفه البلاد ، وتزأماه الاقطار ، حتى طاف بأكثر المعمور من بلاد الدنيا في زمانه ، ثم عاد إلى وطنه بعد عمر طويل ، ليقص ما شاهد في رحلته من غرائب الناس ، والبلاد ، والجواء ، والطبيعة .

وأول ما يشترط لجودة قصص الرحلات :

- ١ - سهولة الأسلوب ، فإن حديث الرحلات من باب القصص الإخباري
- ٢ - التمكن في عرض المناظر ؛ بحيث يستطيع القاص أن ينقل قارئه إلى جو البلد الذي يتحدث عنه ، فيتابعه خطوة بخطوة ، وكذلك التمكن في تتبع الحوادث ، بحيث يكون بين الخبر وسابقه مشاكاة ، ما ، ولو مشاكاة عكسية ، بحيث تتداعى معنى إلى معنى وحادثة إلى حادثة . ويدخل في شرط التمكن ، التوزيع في الأسلوب ، مع الإبقاء على سهولته وفطريته ، بحيث لا تكون عبارته في وصف البلاد أو الحوادث المختلفة ، متشابهة مكررة ، تبعث السأم ، وتخلط صورة بصورة .
- ٣ - الإيجاز ، حتى لا يمل القارئ بالتطويل بذكر ما لا يعنيه ، فمثلاً إذا كان القطار هو وسيلته في السفر ، فليس حتماً أن يقول : قصدت إلى المحطة ، واشتريت تذكرة السفر ، واستأجرت حملاً ، ثم دخلت إلى حيث يقف القطار ، فاتخذت لي مكاناً . وهكذا مما يستغنى القارئ عن سماعه ، لأنه يعرفه بطبعه . إنما يقتصر على قدر الطاقة بذكر غرائب الأمور التي شاهدها . وإثبات ما جرى له من الوقائع الخارقة ، ونحو ذلك .
- ٤ - ألا يكتفى بالسماع في تحصيل عليه ، إلا أن يكون ذلك منسوباً إلى قائله ، ليميز القارئ بين مشاهداته ومسموعاته ، فيعرف الأخبار اليقينية والأخبار المشكوك في صحتها .

٥ - ألا يتزيد في حديثه بالمبالغة والتحويل ، لأن ذلك قد يحجب الحقيقة أو شيئاً منها .

وهناك نوع موضوع من قصص الرحلات ، لم يؤثر مثله عن العرب ، إلا في مثل قصة السند باد البحري ، إن صحت عريتها في أصل الوضع . وهذا

كثير في الآداب الأوربية الحديثة، ويقصد به إلى أحدنا حتى العلم، أو التسلية، ويشترط في هذا النوع فوق ما قدمنا من شروط الرحلة : الإمكانية العقلية، وقد قدمنا الحديث عن معنى الإمكانية في حديثنا عن أنواع المثل

هذه الأنواع الثلاثة : المثل والمقامة، والرحلة . هي لون يتميز بمميزات مختلفة عن سائر أنواع القصص، وقد تحدثنا عنه بما يجزى، أما باقي أنواع القصص، فهو ضرب آخر له خصائص مشتركة . ينبغي أن نتحدث عنها جملة، قبل أن نأخذ في الحديث عن كل نوع بخصوصه .

تسمح لأنفسنا في التعبير قليلا، فنسمى الأنواع الباقية كلها بقصة، والواقع أنها كذلك فعلا، لا يفرق بينها إلا فروق يسيرة : في الشكل، أو في الكم، فالأقصوصة والحكاية والقصة والرواية كلها أسماء تشبه أن تكون مترادفة، لولا الفروق الدقيقة التي سنذكرها بعد، ويجمعها كلها تعريف واحد، هو :

ذكر حادثة وقعت في الحقيقة المحسوسة، أو في خيال القاص ودنياه الباطنة، المكونة من عناصر شخصيته ومزاجه ووجدانه ورغباته وأمانيه وآلام نفسه ونظراته إلى الكون، وما ادخر في الواعية الباطنة من عقله من مختلف الحوادث والصور والأحاسيس المتباينة .

يؤدي ذلك كله إلى قارئه في كلام منظوم نظما خاصا على طريقته الشخصية، مترسما في أدواته ونظمه قواعد الفن القصصي .

هذا التعريف، يشمل الأقصوصة، والحكاية، والقصة، والرواية، كما تخضع هذه الأنواع جميعها لقواعد محدودة، اصطلاح عليها أهل هذا الفن وتسمى مراتب القصة، أو عناصرها الفنية :

مراتب القصة :

كل نوع من أنواع القصة السالف ذكرها، يمكن أن يحتوي على خمسة

عناصر : هي :

الدهليز ، والعرض ، والإرصاد ، والتعقيد ، والحل .
ويمكن في بعض القصص ، الاستغناء عن عنصرى : الدهليز . والإرصاد .
ولنبداً الآن في التعريف بكل عنصر من هذه العناصر . ولنضرب قبل ذلك
مثلاً نطبق عليه ما تذكر من القواعد :

هذان فتیان ، ربطت بينهما أواصر الصداقة في صدر أيامهما ، ثم شامت
الأيام أن يفترقا في باكر الشباب ، فتصورا صورة تذكارية ، ثم ضربت بينهما
الأيام من ضرباتها ، ومضى كل منهما في الحياة لوجهه ، ومضت سنوات ، فقرر
أن تكون عشر سنين أو أكثر من ذلك ، لقي كل منهما ما لقي في أثنائها ،
وتقلبتهما الحياة من تقلباتها ، فسعد هذا ، وشقى ذاك ، واقتقر واحد واغتنى
آخر ، واشتبهت مصالح بمصالح ، وتضاربت آمال وآمال ، وجرت الحياة مع
كل منهما على أسلوب ... واحت من رأس كل منهما ذكرى الماضي كله بما
كان فيه ، إلا جمرات خاية تحت الرماد في الواعية الباطنة .

وجاء يوم التقى فيه رجلان لقاء على غير ميعاد ، لا يعلم أحدهما عن ماضى
صاحبه شيئاً ؛ ونبتت بينهما نابتة ، وتضاربت بينهما أمنية وأمنية ، وتعارضت أهواء
وأهواء ، واشتجرت منافع ومنافع ، وتوقع كل منهما أمراً ومال إلى هوى
وبخاة رأى أحد الرجاءين على صورة يملكها الرجل الآخر ، فردته إلى ماضيه ،
وذكرته شيئاً غطى عليه النسيان من زمان ، وتعارف الصديقان عرفانا جديداً ،
ربط بين ماضيهما وحاضرهما وعرفا ... وتعانقا عناق اللقاء بعد فراق طويل ،
وانجملت بهذا اللقاء عقد الرواية عقدة عقدة وعادت الحياة تجري على سنتها
مع الأحياء .

هذه قصة اجتمعت فيها كل عناصر القصة غير الدهليز . فلنرد كل شئ فيها
إلى معناه لنبلغ ما نريد من المعرفة :

١ - فى أوائل هذه القصة كان فتیان من أمرهما كذا وكذا ، أو من صفاتها
كيت وكيت ، ومن أفعالهما كان وكان ، وهكذا بما يعرف بهما التعريف الذى
يعين القارئ من بعد على تتبع أمرهما .. هذا هو الغرض .

٢ - قضت الأيام على الفتيين أن يفترقا بعد صلة طويلة فتصورا صورة... هذا هو الإرساد .

٣ - فعلت الأيام بهما وفعلت ، وكان من أمر كل منهما وكان ، وكان ضيق وشدة ، ويأس وأمل ، وخوف ورجاء ، وحوادث وحوادث ... هذا هو التعقيد ..

٤ - وظهرت الصورة بينهما في وقت اشتباك الحوادث ، وتنازع المصالح ، وتضارب الآهواء ، واشتجار المني ، واصطراع الآهواء : فكف كغمت الحوادث من غلوائها ، وانحلت العقدة ، هذا هو الحل ..

فالعرض في القصة ، هو التروطة أو التمهيد بذكر أسماء الرواية ، والتعريف بأشخاصهم وطباعهم ، وبسط الظروف الزمانية والمكانية ، التي بدأ عندها موضوع القصة ، والإشارة إلى ما سبقها من عمل يتصل بموضوعها .

أوهى النكرة العامة المجملة عن موضوع القصة ، يتقدم بها الكاتب أول ما يتقدم ، ليهيئ الأذهان للحدث المنتظر ، ويشوق النفوس إلى المتأخر ، ويعرف الظروف والأمكنة والأشخاص .

وهذه المرتبة هي أشق مراحل العمل القصصي من حيث الأداء لأنها تتطلب مهارة فنية بالغة ، لنبعد المأل عن القارئ ، وهي أخرج إلى الكاتب البليغ من كل مراتب القصة . ذلك أنها في موضعها تشبه المقدمة فهي ليست من الموضوع . وليس للموضوع غنى عنها . لذلك ينبغي الدقة في معالجتها مع مراعاة أشياء ثلاثة . هي :

الإيجاز ، الوضوح ، السذاجة :

أما الإيجاز فليكن يمل القارئ ، وكلنا قد رأينا حين نقرأ قصة من القصص أن نفوسنا تكون متطلقة في شوق ، إلى ما وراء هذا التقديم الذي تبدأ به القصة ، فهو لا يعنينا لذاته ولا يشوقنا ولا يحمنا على قراءته إلا الحرص على ما بعده ، فإذا طال العرض وأطرب ، استشعرنا الملالة ، وقبرت الرغبة ، وكثيرا ما يكون طول العرض والإطباب فيه سببا إلى الانصراف عن قراءة القصة .

وهنا تظهر براعة الكاتب ومقدرته البيانية، حين يطوي من الحديث وينشر، ويكتم ويورى، ويورد الخبر غير مرده، ويستعين في تعبيره بالايهام، والاستخدام، والنورية، والمجازسة اللفظية، ونحوها.

وأما السذاجة، فالمراد بها أن يكون أسلوب العرض طيعيا لا تكلف فيه ولا صناعة، إلا بمقدار ما يقتضيه الفن ليتحقق له أن يوضح الفكرة التي يبنى عليها موضوع القصة إلى حد ما.

انتهينا من العرض، فلنتظر في العنصر الثاني من عناصر القصة وهو التعقيد أو العقدة: وهو الجزء الذي يجد فيه القاص المجال الفسيح لخياله، وابتكاره؛ ونعني بالتعقيد المرحلة التي تشتبك فيها الظروف، والوقائع، والمنافع، والمنازع والأخلاق؛ فينشأ عن اشتباكها الشك، والقلق، وفروع الصبر، ونزوع النفس، وتطلعها إلى طريقة الحل، وهي تتنقل بين الرجاء والخوف، وتتعقل بين الحزن والفرح.

وينبغي في هذه المرحلة، ألا تشتبك الوقائع والمنافع مرة واحدة، بل يتدرج القاص في تعقيد الحوادث درجة درجة، حتى ينتهي به إلى نهاية ما، ثم يأخذ في التدرج نازلا حتى يباغ به الطريق الذي أعد فيه المفاجأة للحل.

وقد اصطاح أهل الفن على تقسيم هذه المرحلة إلى ثلاث مناطق: السفح أو الحضيض، والقمة، والمنحدر.

يشبه في ذلك من يصعد جبلا، فيبدأ من السفح صاعداً، فلا يزال يلقى في طريقه مالم يكن يتوقع، حتى ينتهي إلى القمة وقد استفرغ جوده وآده مآلتي، ثم يأخذ طريقه إلى الجانب الثاني من الجبل، حتى يهبط إلى بطن الوادي. وإذا كان التعقيد في القصة هو أهم جزء فيها، بل هو القصة كلها بحوادثها ووقائعها، من ناحيتي الموضوع والكلمة - كان له شروط لا بد من مراعاتها لجودة القصة.

١ - أن تكون الحوادث بما يتداعى بعضها إلى بعض بلا كلفة ولا تصنع.

٢ - أن يراعى التدرج في سياقها بحيث لا تنزال النفوس صابية إلى فض
المشكل مراعاة بمعرفة الخاتمة .

٣ - أن يكون للكاتب من العلم بطبائع الناس في ظروف الموضوع
ما يهيئه إلى التصوير الذي ينقل القارىء من جو إلى جو ، فيسير في قراءتها
وكأنه يعيش بين أبطالها وعلى مقربة من زمانها ومكانها .

٤ - أن يتعد عن الفضول الذي يباعد بين أجزاء الموضوع ويحفر
بجرات تمنع تسلسل القصة تحت عيني قارئها . وهنا ينبغي أن يعلم القاص الذي
يدعو إلى فكرة ما من الإصلاح ، أن المحاورات ليست مرسعا ملائما للدعوة
إلى الإصلاح وبيان أوجه الرأي فيه ، إنما وظيفة المحاور في القصة أنها وسيلة
من البيان في أقصر عبارة تصل بين رأى ورأى أو حادثة وحادثة مما يفيض
به موضوع القصة ، ولن يكون الحوار أبدا وسيلة إلى بث فكرة أو دعوة
إلى إصلاح إلا بقدر غير ملحوظ ولا مدرك في جملة . إنما يكون ذلك في
الحادثة لا في الحديث ، وفيما يحكى لافيا ينطق به .

ولقد يعرض للكاتب من خواطره وأمانى نفسه ومصورات خياله ،
ما يصعب عليه في موضع ما من القصة أن يغفله ، من معنى ، أو فكرة ، أو حادثة
تلج على نفسه ؛ فهنا ينبغي أن يحذر الكاتب أن يخدعه هواه فيذكر ما لا يقتضيه
السياق ويستترسل في خواطره ؛ فإن ذلك يوشك أن يفقد القصة وحدة الموضوع
ووحدة السياق ، وهما شرطان رئيسان لا تجرد القصة إلا بهما .

ولقد يعتمد بعض القصاص إلى استيفاء الوصف لحادثة ما ، حرصا على
الصدق في التصوير ؛ فيدفعه ذلك إلى الإطناب بذكر ما لا يقتضيه الفن ، فينبغي
أن يكون في بال القاص أنه لا عليه في ترك ذلك إذا كان يخل بشرط الانسجام
فإن في كل قصة حوادث سلبية ليس من الضروري أن تذكر ، إذ كان موضوعها
يثب إلى ذهن القارىء من غير أن يلغته إليه مؤلف القصة .

٥ - السرعة مع التدرج ، والمقصود بالسرعة هنا : ترك الاستطراد ،
وطرح الفضول ، بحيث لا تضر هذه السرعة بالامكانية .

٦ - - مراعاة الامكان في حوادث الرواية ، ونعني بالامكانية أن يلبس القاص الحوادث الخيالية ثوب الحقيقة ، فيقرب ما بينها من الظروف ، ويمهد لها أسباب الوقوع ، حتى لا تتناقض مع العقل ، والعلم ، والعرف ، والتقاليد ؛ فلا تبعد القصة في بعض فصولها وحوادثها عن المؤلف في عصر الرواية وعادات أهلها في طبقاتهم الاجتماعية ، إلا أن يكون ذلك مقصوداً لتصوير حالة شاذة في مجتمع غير عادي ، وحينئذ لابد من الايمان إلى هذا القصد ببراعة وتفنن في حواشي الكلام .

على أنه يشترط في الامكانية ألا تؤثر في حالة الشك التي ينبغي أن تلازم القارىء في المرحلة التي تسبق مفاجأة الحل ، لأن عقدة القصة إذا لم يكن لها إلا حل واحد يدل عليه المنطق ويتنبأ به القارىء فقدت القصة مزية التشويق .

٧ - وثمة شرط سابع يتصل بالأسلوب اليباني أكثر مما يتصل بالموضوع ؛ ذلك هو الرقة والتفنن في وجوه الكلام ، والقصد إلى التعابير التي تؤثر في القارىء .
رصد له الموضوع تصويراً بيانياً ، يوقظ حسه ، وينبه خياله ، ويجعل للفظ المفردة في ذهنه معنى تاماً ، ويحول الجملة الصغيرة إلى حادثة ومنظر .
الركن الثالث من أركان القصة ، هو الإرساد .

وهو أن يوصي القاص في بعض حديثه ، في إحدى مرحلتى العرض والتعقيد إلى معنى ، أو حادثة ، أو عادة ، تكون هي تمهيداً لطريق الحل ، بحيث لا تدل عليه دلالة واضحة ولا قاطعة ، وبحيث لا يشعر القارىء حين يمر به في موضعه أنه مقصود بالذكر لغرض ما ، وإلا استعجل القارىء الحل قبل أوانه ، فيفوته بذلك العنصران الرئيسان : التشويق والجاذبية .
وهذا الإرساد في القصة ، يشبه الإرساد البيديعى في الشعر العربى ، فقول
عنبرة :

ورمى كان دلال المنايا نخاض غمارها وشرى وباعا
... يشبه في تقديم كلمة (دلال) إرساداً لقوله (شرى وباعا) — يشبه قولنا
في القصة التي ضربناها مثلاً في أول هذا الحديث ، أن الفتيين تصوراً قبل انقراق ،

إرصادا لجعل هذه الصورة هي الحل ، أو بتعبير آخر ، إن هذه الصورة كانت إرصادا لقافية هذه القصة التي هي خاتمتها ومنحل عقدها .

ويشترط في الارصاد شرطان :

- ١ - أن يكون في موضعه بحيث لا يشعر القارئ أنه مقصود لغرض ما .
- ٢ - أن يكون بارزا بحيث يترك أثره واضحا في فكر القارئ ، فلا يمر به مرور العجلان فينساه قبل أن يأتي وقت الحاجة إليه . فإن كثيرا من القصص تفقد روعتها الفنية لسبب تافه ، هو ألا يحتمل القاص حيلته على أن يكون هذا الارصاد بارزا الأثر ، فيقتحمه الفكر والنظر ، حتى إذا آن أوانه ودعت الحاجة إليه عند تدوير الحل ، لم يكن منه في ذاكرة القارئ شيء ، فيسائل نفسه : متى كان هذا ؟ وقد لا يظفر بالجواب ، فيعود إلى القصة يقرب صفحاتها ، وتقوته بذلك لذة القراءة وسرور الخاتمة .

وهذا الركن - الارصاد - قد يستغنى عنه في كثير من القصص ، حين يكون أمره مشتهرا بما عرفه الناس وألفوه ، وحينئذ يصح أن يقال : إن الارصاد مضر ، فهو موجود ، ولكن في ذهن القارئ لا بين صفحات القصة .
 بقى الحل : وهو الركن الأخير من أركان القصة ، وبه تنحل العقدة ، بزوال الخطر ، أو قضاء الوطر ، أو تذليل العقبة ، أو حلول الكارثة . واليأس إحدى الراحتين .

- ويشترط فيه (١) أن يكون فجائيا بحيث لا يتنبأ به القارئ قبل أوانه ، وإلا زال الشك وبزواله يذهب التشويق والجاذبية .
- ٢ - أن يكون مرتبطا بما قبله ارتباطا وثيقا طبيعيا ، بحيث يقنع به العقل ، ويزول عنده الشك ، وتهدأ معه نوازع النفس .

... فالتنا أن نتحدث عن شيء ذكرناه من مراتب القصة ، وإن لم يكن من لوازمها : ذلك هو الدهليز : وهو تقديم يسبق العرض ، يتحدث عن الجو العام الذي بدأت فيه حوادث القصة وكان له أثر فيها ، ليوطئ للخبر ، ويقرب مأخذ الرواية .

مثال ذلك : قصة يراد بها رواية حادث وقع في مصر ، في أيام الثورة الوطنية ، سنة ١٩١٩ وكان له أثر فيها ولها تأثيره . فهذه القصة ، لا بد لإيضاحها من تقديم الحديث بقدر ما عن شيء من التاريخ يصنف ما كان في تلك الأيام ، حين بدأت حوادث القصة ، على أن يقتصر القاص في ذلك على ماله صلة بموضوع القصة ، بحيث لا تطيب إلا به ، ولا تحسن إلا معه .
وبديهي أن هذا الدهليز ، ليس جزءاً حقيقياً من القصة ، ولكنه ترشيح لها ، وفرش للحديث عنها ؛ ومن ثم يستغنى عنه إذا كان سياق القصة يدل عليه ، أو كان جزؤها معروفاً بحيث لا يستدعي تعريفاً به .

بهذا العرض الموجز ، نستطيع أن ندرك صورة توضح لنا أجزاء القصة إلى حد ما ، ولو أنني وجدت سعة من وقتي ومن وقتكم ، لأوردت لكم بعض الشواهد التطبيقية المختلفة لتتبع هذه الأجزاء والتعرف إليها ، ولكن يغني عن ذلك يقيني بأنكم لستم في حاجة مني إلى ذلك ، فكلكم ، ولا أستثنى ، قد قرأ من القصص المختلفة جملة تعينه على ذلك وحده .
على أني أحسب أن البرامج الجديدة في اللغة العربية لم توص بدراسة القصص إلا قصداً إلى ناحيتين : الأولى أن تضع تحت عين التليذ ما يمكنه من وسائل النقد ، والنقد إنشاء سلبى يأتي في المرحلة الثانية...
والناحية الأخرى هي أن تهيب للنشء العربي الوسيلة إلى صناعة القصة ، باعتبارها لونا من ألوان الأدب الجديد له خطره ومقداره ؛ بل لا أجدني غالباً في القول إن زعمت أن القصة سيكون لها في مستقبل الأدب الأسمى عامة ، والأدب العربي خاصة - شأن ، يحمل ماعداه من ألوان الأدب الأخرى ، ويطغى على أدب المقالة ، وأغراض الشعر ، وفنون النثر وغيرها من وسائل البيان . فالقصة هي الحيلة البارة التي تستطيع بها أن تاج إلى كل نفس ، في كل غرض ؛ لذلك لا يكفيني في الحديث عن القصص هذا القدر ، وحسبي أن يكون ذلك

مقدمة لأحاديث أخرى ، وبأكورة لبحوث ومحاولات في معالجة القصة ، من ناحية النقد ومن ناحية الانشاء

فإن كان هذا هو ما قصد إليه واضع هذه البرامج ، فإنه يعني هنا أن أنبه إلى أن دراسة قواعد القصص وأنواعه وشروط جودته ، لا تجزى وحدها لتكوين الناقد . أو لتكوين القاص المرفق ، إنما يجزيه ذلك حين يسبقه مطالعات طويلة متوالية لنماذج من القصص في ألوانه المختلفة ؛ ويده من ورائه فطرة قصصية موهوبة وخيال بارع .

إن القصص عمل وعمر ، متشعب المسالك ، مشتبه السبل ، يستلزم وسائل كثيرة لا تتأتى إلا بعد جهد ومعاناة ووقت طويل .

ولاني على يقين بأن بحثي هذا - على إيجازه وسداجته وسهولته - لو ألقته في غير هذه الجماعة من أهل العلم ، على رجل لم يجمل للقصص بعض الوقت من مطالعته اليومية الرتيبة ، لما أفادته شيئاً أكثر مما يفيد تلميذ لم يقرأ كتاباً واحداً في العربية ثم سمع درسا من دروس البلاغة العربية في الاسناد ، أو في الإيجاز والاطناب .

وأعتذر ثانية من هذا الاستطراذ ؛ الذي يدعوني إليه رأي في هذه البرامج الجديدة لا أجد عندي لأصرح به مثل شجاعة الاستاذ عبد الوهاب حمودة في محاضراته عنها في الأسبوع الماضي ...

وحسبي أن أسأل سؤالا : هل أعد الذين وضعوا هذا البرنامج عدتهم له وأرصدوا له وسائله ؟

هل وضعوا بين يدي التلميذ الذي يريدونه على أن يدرس القصص على أنه فن من فنون البلاغة ولون من ألوان الأدب - طائفة من القصص المختارة في سني دراسته السابقة ، تعينه في الدراسة التوجيهية على فهم قواعد القصص ، وأنواعه ، وشروط جودته ؟

سؤال يعرف جوابه كل مدرس منكم . ويعرف ما وراءه ؛ يعرف أن هذه القواعد الجديدة التي يريدون التلميذ على دراستها سيؤول أمرها في النهاية

إلى أن تكون قواعد للحفظ والتسميع ، لا وسائل إلى الانشاء الصحيح في الأدب ، أو النقد الصحيح لفنون الأدب .

بعد هذه الوقفة الصغيرة ، أعود إلى الموضوع الأصلي ، لا نتحدث إليكم عما أجملت الحديث عنه من أنواع القصص ؛ للتمييز بين الأقصوصة ، والحكاية ، والقصة ، والرواية ، ولكن عقرب الساعة يدور ، والزمن المحدود لي قد أوشك أن ينتهي ، وما يزال في الموضوع عناصر تستدعي الاسهاب ، وتقضى الايضاح والبسط ، فمأجل بقية القول في كلمات .

ليس هناك فرق بين الأقصوصة والقصة ، من ناحية الموضوع ، ولا من ناحية الكيف ، ولا من ناحية الشروط الواجب استيفائها في كل منهما ، وكل ما بينهما من فرق ، هو في الكم والمقدار ، فالأقصوصة صورة مصغرة من القصة في كل مراحلها الفنية ، ولكنها بموضوعها ، وحادثتها ، عمل صغير تتابع مراحلها الفنية في إيجاز وسرعة ، وإذا كان التعقيد في القصة مركبا ، فانه في الأقصوصة بسيط ، يدور حول حادثة بعينها ، وعمدة واحدة تنتظر الحل .

على أن عمل الأديب في الأقصوصة هو أشق وأصعب من عمله في القصة فهنا تتركز الحوادث ، وتتوالى الخطوات في سرعة لا تؤثر في الامكانية ، ولا تذهب بالشك ، فهي خفقة نفس وتنتهي ، ولكنها مع ذلك خفقة واحدة تنفعل بها النفس وتتلون بكل الصور الوجدانية الممكنة ، من خوف ، وأمل ، وإشفاق ورحمة ، وشهوة ، وهوى . وهو عمل عسير أن تحتشد كل هذه الاحاسيس في حادثة واحدة ثم تنتهي إلى نهايتها بالحل الموفق في قدر صفحتين أو ثلاث من صفحات الكتاب ؛ ولنوضح الفرق بين القصة والأقصوصة بمثال فطرى ساذج :

هذا قتي ورث الغنى والمال عن أبيه ، فأسرف ، وبدد ، وانطلق في شهواته إلى آخر حدودها ، حتى جاء يوم يوشك أن يطرد فيه من داره التي بيعت بالمزاد ، وفي لحظة اليأس الاليم ، جاءه المنقذ في صورة صديق من أصدقاء أبيه كان أسدى إليه يدأ في يوم من الأيام فسددينه ، وأقره في داره ... هذه الأسطر ، على هذه العمورية ، هي أقصوصة ، فيها العرض ، والارصاد

والتعقيد، والحل. فلوتنا ولها كاتب من الكتاب، وأخذ في تعقيد حوادثها منذ زين للفتى شيطانه أن يسرف ويبدد... واسترسل في خياله يخلق الحوادث، ويعقد المشاكل، ويطوف بالفتى البلاد، ويزين له الآمانى، ويصطنع في طريقه العقبات، ويجمعه إلى ناس وناس، وإلى رجال ونساء، وزوجه واستولده، وخرج به من مازق ليضعه في مازق... وساربه كذلك من طريق إلى طريق، ثم انتهى به هذه النهاية نفسها، في موقف اليأس الأليم، صفر اليدين، محطم الآمال، عن يمينه وشماله شهوات وآمانى، وأمامه ووراء أهواء وأغراض؛ وفي هذه اللحظة، لقيه إنسان نبيل الخلق، جم المروءة، مبسوط اليد، واسع المعروف؛ فأخذ يمهده سبيله خطوة خطوة، ويوقره كل يوم بحميل، ويتحنن عليه كل فترة بمعروف، حتى استقامت للفتى حياته، وطالت يده، وطابت نفسه، ولكنه ما يزال في هم ينغص عليه ويوقر ظهره، لأنه لا يجد ما يستطيع به وفاء أيادى هذا المنقذ، ويشعر بمعروفه غلا في عنقه وعبئا على كتفيه، وتثور به كبرياؤه الموروثة، وتأتى عليه أن يحمل هذا الدين الفادح فلا يستطيع وفاءه. وينفعل وجدانه وتضارم أحاسيسه، وتتعد حياتاه تعقيدا جديداً في داخل النفس، حتى تبلغ به مرتبة اليأس في حال عصية شديدة... حيثئذ يعلن إليه منقذه من يكون...

لو أن كاتباً من الكتاب تناولها بهذا البسط، وعقدها هذا التعقيد المركب لكانت قصة.

أما الحكاية، فهي أخت الأقصوصة ومساويتها في الكم، ولكنها تختلف عنها في الموضوع؛ فإن العنصر المتميز فيها هو الخيال البكر، والاختراع العجيب؛ ويكون المقصد فيها إلى النسلية والإغراب في التشويق وخلق الحوادث أكثر مما ترمى إلى التصوير أو الموعظة أو التعليم؛ ومن ذلك كان أكثر أبوابها الخرافة. ومنها الأحداث التي تروى العامة.

وتأتى القصة بعد ذلك، ونواتها الأقصوصة كما سبق، وتتميز عنها بكثرة ألوانها، وازدحامها بالحوادث، وتناولها الموضوع من قريب ومن بعيد،

بتسلسل التعقيد فيها وتركيبه ، وإحاطتها بكل ما يتداعى لموضوعها من المشاكل ،
فهي تتبع حياة البطل وأعماله جميعاً ، وصلاته بالناس ، ومشاكله المختلفة ، وعلاقاته
بكل ما يحدث في يومه ، وهي بذلك تشبه أن تكون تصويراً تاماً له ولحركاته
العملية المحسوسة والفكرية المضمرة في طوايا نفسه ، في الفترة التي تجري فيها
حوادث القصة جميعاً ، على خلاف الأفعروسة التي لا يعينها من حوادث بطلها
إلا ما يتصل بموضوعها الواحد الذي تعالجه .

ولا تختلف الرواية كثيراً عن القصة ، وكل ما بينهما من الفرق : هو أن
القصة توضع لتقرأ أو تحكى ، أما الرواية فتؤلف لتمثل على المسرح أو في الخيالة
ولذلك يقوم تأليفها على الحوار .
ولكل من القصة والرواية أنواع ، أدع الحديث عنها إلى فرصة أوسع ،
لأن الحديث فيها يطول .

وأكرر الشكر لكم على ما تجشتم من السعى إلينا ، وما ضحيت من الوقت
لسماع هذا الحديث ، ولعلني إن رافكم هذا البحث ، أن أعود إلى إتمامه بعد
جمام لتفصيل ما أجمت من عناصره ، إن أذتم لي وأوليتموني شرق المحاضرة

محمد سعيد العربي